حول نقد كتاب الذخيرة
فى علم الطب
للأستاذ إسماعيل مظهر

— قرأت فى مجلة الثقافة الغراء منظومة من النقود وجهها الأب أنستاس مارى الكرملى إلى صديقى الدكتور جورجى صبحى ناشر كتاب الذخيرة المنسوب فى بعض المؤلفات القديمة إلى العلامة الكبير ثابت بن قرة .

ونشر كتاب الذخيرة تاريخ لو أن حضرة الأب المهذب الرقيق قد علم طرفاً منه إذن لالتمس للدكتور صبحى بعض العذر عن أخطاء وقعت فى الكتاب . فقد كان موعد الاحتفال بالعيد المئينى للقصر العينى قد أزف . وحَسُنَ عند صاحب السعادة
— الدكتور على إبراهيم باشا أن يُطْبَعَ كتاب « الذخيرة » إحياء لأثر قديم وتعبيراً عن اتصال ثقافتنا بثقافة أوائلنا وتذكيراً بتراثنا المجيد . وبُدِئَ بطبع الكتاب من نسخة سقيمة سيئة الخط محشوة بالتصحيفات قبل موعد الاحتفال بشهر واحد .

وما إن حان الموعد حتى كان الكتاب مطبوعاً معداً للنشر . فكان لهذا العامل أثره فيما يكون قد وقع فى الكتاب من تصحيفات لا أشك أقل شك فى أن أكثرها موجود فى النسخة الأصلية ؛ وكان من المتعذر مادياً بحثها وتصويبها فى مثل هذا الزمن القصير الذى استغرقه طبع الكتاب . وما قولك فى أن حضرة الأب اشترى الكتاب فى فبراير من سنة ١٩٣٤ ولم يستطع أن يحقق ماورد فى نقوده من الألفاظ إلا فى شهر يوليو من سنة ١٩٤٠ إذ بدأ بنشر نقوده التى ألمعنا إليها . يدلك هذا على أن تحقيق هذه الألفاظ كان صعباً والرجوعَ إليها فى مظانها أمر يستغرق السنين . فللدكتور صبحى على أية حال عذر إن تعذر عليه تحقيق بعض ألفاظ الكتاب وتصحيح عباراته تصحيحاً كاملاً .

ولا أريد أن أتعرض هنا لشىء مما صوب به حضرة الأب بعض أخطاء الكتاب، ولكن أريد أن أنشر حقائق ثابتة لا يتسرب إليها الباطل ، عن الدوافع التى دفعت حضرة الأب المحترم إلى نشر نقوده هذه . فإن وراء هذا النقد ماضياً يجب أن يعرف ، وله بداية كانت هذه النقود نهايتها . فقد أطلعنى الدكتور صبحى بك على كتاب بخط يد الأب المحترم يسأله فيه أجراً على تصحيح الكتاب، وكان الدكتور صبحى بك مريضاً فلم يعر الأمر اهتماماً

فى مدينة جنيف وحاولوا إيجاد الوسيلة لمنع الحروب فى المستقبل . وأحسب أنهم بعد الحرب الحاضرة سيرسلون عقلاءهم إلى مدينة ما لإيجاد وسيلة لمنع الطعام وسيقولون إنه متعب فى إعداده ، متعب فى هضمه، متعب فى تناوله، فلتتدبر فى سبيلة ترحمنا منه ... وسينجح هؤلاء الحكماء فى محاولتهم منع الطعام بمثل القدر الذى نال من النجاح من سبقوهم فى محاولة منع الحرب . وهو مع رأيه هذا فى
— الحرب يرى أن أذى الحروب أقل من نفعها ، ومن نفعها أنها تولد الشجاعة والجرأة والنخوة .

وهو متحدث بارع ، وقد يدافع عن قضية خاسرة لمجرد الاغتباط بالحرب الكلامية

ومن رأيه أن حملة الأقلام جميعاً رجال غير عاديين

قال : وإذا نحن أحصينا من يكتبون وجدنا هم قلة ضئيلة بالقياس إلى من لا يكتبون ، وهذا وحده سبب كاف لاعتبارهم من طراز غير طراز الرجل العادى

هذه بداية تعرف على المؤلف الذى أدرجت مؤلفاته العشرين فى قائمة « كتب لم أقرأها » وليس كل ما فى هذه القائمة مندرجاً بالطبع فى قائمة « كتب لن أقرأها » فلدى حين أزداد تعرفاً عليه أزيد تعريفاً به

أو لعل من سبقوا إلى معرفته أن يشركوا أهل لغتهم فيما أفادوه منه

* * *

وبعد كتابة ما تقدم قرأت فى جريدة الإجبشيان ميل عدد ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٠ أن اللورد دنسانى دعى إلى حفلة تكريمية أخرى بنادى الاتحاد الإنكليزى المصرى فألقى بها قصة طريفة له عنوانها « بنت رمسيس »

وأنه سيلقى فى الأسبوع القادم محاضرة عن الشعر الإنكليزى بالجمعية الملكية الجغرافية ، وأرجو أن ألخص القصة والمحاضرة لقراء الرسالة .

عبد اللطيف النشار

وشغل بمرضه عن كل ما عداه . واتصل طبيب بالقاهرة بالدكتور صبحى بك ينبهه على أن يجيب حضرة الأب إلى طلبه فرفض صبحى بك معتذراً . وإلى هنا تنتهى مقدمات النقد . وكان النشر بمجلة الثقافة نتيجة لهذه المقدمات .

ولعل القراء يعجبون كيف أن رجلاً من رجال الدين المنقطعين عن لهو الحياة الزاهدين فيها ، المترهبين فى سبيل الله والعلم ينزلق فى هذا المنزلق ويزل هذه الزلة ولا حاجة له بمال ولا مطمع له فى الدنيا ولا زوجة له ولا ولد ؟ نعم إن هذا لباعث على العجب مفض إلى طول التأمل . ولكن ذلك هو الواقع مع الأسف . وما كنت لأتطوع جاهداً فى كشف هذا السر العجيب لولا أن حضرة الأب المحترم قد تمادى فى الهجوم على رجالات مصر ، ومن قبل هاجم الدكتور شرف بك ثم الدكتور أحمد عيسى بك ثم حضرة صاحب العزة أحمد العوامرى بك ، وغيرهم من كبار رجالنا المشار إليهم بالبنان المكبين على العلم لأجل العلم لا لأجل المال . أولئك الذين أفنوا أعمارهم وأموالهم فى الطلب والفحص والتنقيب غير مترقبين من الناس مالاً ولا مستجدين منهم أجراً ، عالمين أن أجرهم عند الله أبقى .

لئن كان حضرة الأب قد نشر هذا النقد خدمة للعلم حقيقة فما هى الحاجة التى حملته على أن يطعن حضرة الدكتور صبحى بك فى علمه وفى مهنته ؟ وإليك بعض أقواله فى مجلة الثقافة[1].

إن هذا لمن أعجب العجب . يتساءل راهب لنوى كيف أن طبيباً مصرياً عظيما ، وأستاذاً فى كلية الطب ، ومن أمهر المشتغلين فى القطر المصرى بهذه الصناعة : يتساءل كيف حصل على شهادته ! ألست تجد أيها القارى أن مثل هذا الأمر يدل على حفيظة سببها أن هذا الدكتور لم يجُد عليه ببعض المال ليصحح أخطاء كتاب قديم وقف على طبعه ؟ كان إذن من الواجب على الذين أعطوا الدكتور صبحى إجازة الطب أن يرسلوه لحضرة الأب أولاً ليجيز لهم أن يعطوه شهادته

ومن أعجب العجب أيضاً أن يعترف حضرة الأب بأن كتاب الذخيرة (فى أصله) مشوه وممسوخ . قال فى الثقافة (العدد ٨٤ ص ٤٠) :

« اتضح أن هذا التصنيف ليس لثابت بن قرة ، وبان بالعكس أن واضعه قليل البضاعة بعلم العربية ، والكاتب قبطى من أهل المائة السابعة أو الثامنة للهجرة لجهله الألفاظ العلمية وتشويهه لها وجهله الأحكام اللغوية ومسخه لها مسخاً شنيعاً »

هذا اعتراف حضرة الأب الصريح يدل على أصل الكتاب ، أى الأصل الذى طبع عنه الدكتور صبحى بك . أفلا يصح أن يكون هذا شفيعاً عند حضرة الأب فى بضعة أخطاء اضطر الدكتور لإثباتها كما هى مراعاة للأصل المطبوع عنه التماساً لإصدار الكتاب فى شهر واحد من الزمان ؟

أما أن يخطئ الإنسان فذلك أمر طبيعى ، ولكن من غير الطبيعى ومن غير اللائق بالسداد أن يتمنى حضرة الأب أنستاس أن يصبح وزيراً للمعارف فى مصر فيفتتح عهده بالحكم بغرامة ٢٢٨ جنيهاً ، وبالحبس ٢٢٨ يوماً على الدكتور جورجى صبحى جزاء نشره كتاباً به بعض الأخطاء !

ولقد يدعى حضرة الأب أنه لا يخطئ ، لأنه لو كان يسلم بأن الخطأ واقع من أبناء آدم لما انزلق فى نقده إلى حيث انزلق ، ولكنى أقول له إنه يخطئ خطأ فاحشاً يعتدى فيه على العلم وعلى الثابت فى مظان العلم

فقد حدث فى دورة المجمع اللغوى السادسة أن قام حضرة الأب يدعى دعاوى عريضة فسقط وكبا كما يؤخذ من رد حضرة العلامة الأستاذ فيشر عليه فى محضر الجلسة السادسة عشرة من الدورة السادسة . وأنقل هنا نص رد الأستاذ فيشر عليه لأن به من البيان ما لا محل معه لبيانى . قال :

« قرأت أمس فى محضر الجلسة العاشرة بحث كلمة «موسيقى» « موسيقا » لحضرة الأب أنستاس مارى الكرملى . وقد أعجبنا جميعاً بكثرة معلوماته وذكائه ، ولكن لا معصوم من الخطأ إلا نبى . وعليه فإنى أعتقد أن حضرة الزميل العلامة قد زَلَّ فى بعض مواضع بحثه إذ قال فى صدر بحثه : « فأقول إن العرب لم يأخذوا لفظ الموسيقى من الروم لا يونانيين كانوا أم يونانيين ، وإنما أخذوها من الإرميين بدليل أنهم يقولون (هنا كلمة إرمية) وتقرأ موسيقى بالياء . والدليل الثانى أن للموسيقار العربية فى نفس الإرمية (هنا كلمة إرمية) وتلفظ موسيقاراً . والدليل الثالث أنهم « أى العرب » قالوا مثلهم موسيقاراً . ولم يراع أن كل

(١) انظر هذه النصوص فى كلمتنا التى نشرت بالعدد الماضى من الرسالة بعنوان (إلى جمهرة أهل الأدب)

ما نقل عن اليونانية كان بواسطة الآراميين كما أن كل ما نقل عن اللاتينية قبل فتح العرب لشمال أفريقية كان بواسطة اليونان وعنهم بواسطة الآراميين

« ولم يراع أن الكلمة الآرامية (. . . . .) يرجع أصلها إلى الكلمة اللاتينية « Musicarius » وأهم من هذا ما وقع فيه من خطإ قائلاً : وأما عرب الجاهلية وصدر الإسلام فإنهم قالوا : « المِزيقَة » واستشهد على هذا القول ببيت للشماخ أورده كما يأتي :

له زَجَل كأنه صوت حاد ... إذا سَمِع المِزيقة أو زَمِير

ولا أدري من أين نقل هذا البيت . فإنه ورد في ديوان الشماخ طبعة أحمد بن الأمين الشنقيطي صفحة ٣٦ ما يلي :

له زجل تقول أصَوْت حاد ... إذا طلب الوَسِيقة أو زَمِير

« وهذه الرواية صحيحة فإن هذا البيت جاء وصفاً لحمار وحشي في قصيدة للشماخ ، ومعناها يتفق مع ما أورده الشنقيطي في الشرح إذ قال : « المعنى أن الحمار الذي يصفه يشبه صوته بأتانه إذا صوت بها صوت حادي الإبل أو صوت مزمار »

« فكذلك لا توجد كلمة المزيقة في شعر الشماخ ، ولا توجد في أي شعر آخر ولا في كل العربية

« وقد ظن حضرة الزميل العلامة ، بعد اعتقاده بأن كلمة « المزيقة » قد وردت في شعر الشماخ أن فعل مَزّق الذي ورد في الشعر القديم بمعنى غَنّى قد صحف عن مزّق . وقد قال حضرة العضو الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين في أثناء الجلسة : « لا أوافق حضرة الأب أنستاس على أن لفظتي ممزّق وتمريق مصحفتان من ممزق وتمزيق . إذ لا دليل على هذا التصحيف الخ »

« وإني متثبت من أنه على حق ، فإنه قد وردت في لسان العرب وأساس البلاغة شواهد على فعل مزّق ، وقد بين هذه الشواهد بيت للشاعر « المزّق » من قصيدة وردت مرتين في ديوان « المفضليات » — (طبعة تشارلس لايل صحيفة ٦٠٣) ، وفسر الأنباري شارح المفضليات الفعل مزّق كما يلي » :

« ومزّق يغني والتمريق الغناء . يقال : قد مزّق يمزّق تمريقاً فهو ممزّق إذا غنى ا . هـ » . وورد هذا الفعل أيضاً في كتاب الأغاني (طبعة دار الكتب المصرية في الجزء السابع صحيفة ٢٣٨) في سياق الكلام كما يلي : قال الحسن وحدثني غانم الوراق قال : خرجت إلى بادية البصرة فصرت إلى عمرو بن تميم فأثبتني بعضهم فقال : هذا الشيخ والله راوية . فجلسوا إليّ وأتوا بي وأنشدتهم وبدأت بشعر ذي الرُّمة فعرفوه وبشعر جرير والفرزدق فعرفوهما ؛ ثم أنشدتهم للسيد ... « أتعرف رسما ... الخ » ثمانية أبيات ؟ قال : فجعلوا يمزّقون لإنشادي ويطربون ، وقالوا : لمن هذا ؟ فأعلمتهم ... فقالوا : هو والله أحد المطبوعين ... لا والله ما بقي في هذا الزمان مثله » ا . هـ عبارات الدكتور فيشر

أيليق بنا يا حضرة الأب المهذب أن نسأل : كيف حصلت على لقب لغوي ما دمت تسقط في مباحث اللغة هذه السقطات الشنيعات ، ثم تتدارى بعد ذلك وراء ألفاظ الهجاء لتخيف الناس من لسانك ومن قلمك ، ولتستر بذلك خطأك وحذلقتك وتهجمك على اللغة عفو الخاطر ، لأنه قيل إنك لغوي ، ولأنه جرى بين الناس أنك كذلك ؟ . . .

* * *

وبعد ، فإني لا أود أن ألقي القلم قبل أن أفرغ من حضرة الأب المهذب أولاً وآخراً . فإني اتهمته بأنه طلب من الدكتور صبحي مالاً لينتقد كتاب « الذخيرة » سراً ثم يسكت ؛ فإذا أبى الدكتور صبحي بك ، نشر الأب نقوده متظاهراً بالغيرة على العلم وعلى لغة القرآن : فسأل للغة القرآن منه المعاني

والواقع أن هذه دعوى عليّ إثباتها : فإن الكتاب الذي أرسله حضرة الأب إلى الدكتور صبحي بك يسأله فيه ذلك ، قد مُزّق وألقي به في سلة المهملات مع الأسف الشديد ؛ ولو أنه باق ، إذن لنشرته بخط يده . ولكن حضرة الأب قد ينسى أن كتاباً آخر يدل دلالة قاطعة على أنه يأخذ المال باسم اللغة والغيرة على اللغة ، ولكن بالسباب والشتم . وإني أقتطف من هذا الكتاب عبارات مع حذف الأسماء . فإن أنكر الكتاب نشرته للناس بخط يده . جاء في ذلك الكتاب :

« نعم إن إحسانات الدكتور ... قيدت يدي ورجلي ومنعتني عن أن أهجم عليه هجماتي المعتادة على أصحاب سائر المعاجم[1] ، ولما رَدَّ عليّ رده المعهود وكله سفاسف وجهل شنيع للقواعد العربية والأصول اللغوية ، أخذت القلم لأكشف عوراته ثم فكرت

(١) يقصد حضرة الأب « سائر أصحاب المعاجم » وأصحاب سائر المعاجم أسلوب هندي أو واقواقي كما يقول هو للناس

فى نفسى وقلت أهذا مكافأة من أحسن إليك وأنقذ مجلتك[1] من أن تغلق فى تلك السنة الخسارة التى لحقتها . فكسرت القلم وقلت الإقرار بالفضل والإحسان من شيم كرام النفوس، والغض عن الرد خير من الاستسلام للغيظ. وهكذا سكت، ولو لم يكن برُّ هذا الرجل وماله بالفضل على لسحقته سحقاً ، لأن ما فى ... من الأوهام والخبط والخلط يسود عين الشمس فى رائعتها . والآن أقول إن ... نصاب فى الأدب ولا يقاربه أحد فى نصبه ، ولكن إذا كانت أموره تجوز على بعض السذج ، فإنها لا تجوز على من له أدنى إلمام بالأدب »

ثم يقول حضرة الأب المهذب :

« أتعلمنى بمنزلة ... وأنا أعلم علم اليقين أنه لا يرى فى مادة واحدة من مواده إلا أغلاط جمة؟ ومع ذلك أقول ولا أخاف لومة لائم إن أغلاط ... دون أغلاط... فإن هذا الأخير أفسد كل مادة فساداً لا تقوم له قائمة ، وليس للرجل أقل اطلاع على اللغة ولا على علم ... ولا على نقل الألفاظ من الأفرنجية إلى العربية . والآن أجيبك على سؤالك :

« ١ — إنى تسامحت كل التسامح فى نقد ... لأنه أحسن إلى. ولم أفعل مثل هذا الفعل فى نقد ... لأنه لا فضل له علىّ فلم أسامحه لأنه زاد فساد ألفاظ ... وأوهامه زيادة فاضحة

« ٢ — إذا نقدت ثانية ... أهتكه هتكا من غير أن أستعمل كلمة جارحة كما فعلت مع ... لأن ... اشتغل أكثر من ... وعانى مشقات أعظم . أما لو أردت أن أنزله دركات جهنم لما صعب على لأنه هيأ لى الوسائل والذرائع لإنزاله فى تلك الهاوى » اهـ

هـذا كلامك يا حضرة الأب عندى بخط يدك أنشره على الناس ليعرف الناس لماذا تكتب وتحت أى تأثير تكتب ، فإن لم تسكت نشرته فى كراسة مطبوعة بالزنكوغراف ، ولو أنى بذلك سأسىء إلى أصدقاء هم من دينى وأهلى الذين تتهاتر عليهم بعلمك، وأتحمل فى سبيل ذلك حساب ضميرى على أن أنزل أسماءهم الشريفة المنزلة التى لم أجد بدونها وسيلة إلى إسكاتك أبد الآبدين

وتحت يدى أيضاً كتاب آخر أرسلت به إلى صديق لك قديم يدل على مقدار ما تعرف من قدر الصداقة ، إن أنكرته نشرته أيضاً

وبعد فقد يكون فى كتاب الذخيرة كل الأوهام التى أشار إليها حضرة الأب المهذب ، وقد يكون بعض هذه الأوهام من « حذلقاته » المعروفة فإنى لم أعن بتحقيق ما جاء بنقده ، فإنى ما أردت بهذا الرد إلا أن أقرر واقعاً وأنفى عن رجالنا شبهات يكيلها لهم هذا الرجل كيداً وظلماً. وإنى لأعلم أنى سأتلقى على يده من الإهانات والسباب ما سوف أتقبله

وكلمة أخيرة أتوجه بها إلى الأستاذ الفاضل أحمد أمين عميد كلية الآداب ومحرر الثقافة فأسأله : هل من اللائق أن يُوَجَّه على صفحات الثقافة ألفاظ وعبارات كتلك التى وجهها حضرة الأب إلى الدكتور صبحى بك وهو له زميل فى الجامعة وأستاذ منه فيها ؟

هل يقبل الأستاذ أن ترى الجامعة التى هو أحد أساتذتها وعميد كلية الآداب فيها بأنها فقدت شيئاً كثيراً من حسن سمعتها وأنها تروج إفساد اللغة وأنها تثبت الألفاظ المشوهة ؟

اسماعيل مظهر

(١) مجلة لغة العرب التى كان يصدرها الأب

حكايات من الهند

كتبها بالانجليزية الطالب الهندى (أبار) وترجمها

عبده حسن الزيات

المحامى

تشمل ١١٣ صورة رمزية واجتماعية وسيكولوجية — ثمن النسخة عشرة قروش مصرية (صاغ) — وتطلب من المكتبات ومن المعرب فى شارع إبرهيم باشا رقم ١٠ بالقاهرة